مقالة

مظلمة

لِيلِيـــــث

إعداد

الدكتور: عصام الدين إبراهيم

{مظلمة ليليث}

من خرافة غابرة إلى أيقونة معاصرة:

الحمد لله الذي خلق الخلق بقدرته، وفصّل الأحكام بحكمته، فجعل الرجال قوامين على النساء لحكمةٍ، ورسم حدود الطاعة ليُستبين بها كل صاحب إحسانٍ أو غفلةٍ، وجعل الفضل والرفعة في لزوم الأثر والاتباع، لا في الرغبة عن السَّنَن والابتداع.

والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين، وهادياً للمكلفين، الذي أدب فأحسن التأديب، وزجر عن المخالفة والنشوز بالتفصيل والتبويب، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

خطة الموضوع:

تفكيك أسطورة "ليليث" والتوظيف النسوي للتمرد على الأحكام الربانية:

مقدمة:

آفة تزييف المفاهيم:

إنَّ أعظم ما تُصاب به العقول في أزمان الهزيمة الفكرية هو تلقّي المفاهيم المنحرفة والرموز الفلسفية الوافدة دون تمحيص أو تفكير؛ حيث تُمرَّر الأفكار الهدامة مستترةً خلف عبارات "الحقوق" و"المظلوميات".

ومن أبرز الرموز التي نُفض عنها غبار التاريخ في القرن الماضي، وأُخرجت من سراديب الخرافات البابلية لتُتَّخذ مَطيَّة للطعن في ثوابت الدين والفطرة:

أسطورة "ليليث" (**Lilith**).

فهذه الشخصية التي ولدت في رحم الأساطير الوثنية القديمة، ثم مشت في ثنيا دسائس الإسرائيليات وتحريفات أهل الكتاب، باتت اليوم "أيقونة" ملهمة للحركات النسوية الراديكالية[1]؛ يُستحضر طيفها المتمرّد لتبرير الخروج عن أحكام الله تعالى وتصوير التشريعات الربانية كبنية جائرة صُممت لقهر المرأة وحبس حريتها.

المحور الأول: حقيقة "ليليث" في ميزان التاريخ وسبر الأساطير:

إذا سبرنا الجذر التاريخي لـ "ليليث"، وجدنا أن الكلمة لا صلة لها بالبشرية أصلاً في مهدها الأول؛ فاللفظ مشتق من المادة السومرية والأكادية[2] القديمة (**Lilitu**)، وهي تعني في وثنيات بلاد الرافدين:

أرواح الرياح والعواصف وعفاريت الليل.

كانت "ليليث" في المخيال البابلي والآشوري[3] شيطانة قبيحة تسكن الخرائب والبراري الخالية، ترتبط بالغواية الجنسية المهلكة واختطاف الأطفال الرضع لامتصاص دمائهم.

---

[1] الراديكالية (**Radicalism**) هي مصطلح سياسي وفكري يعني الميل إلى التغيير الجذري والشامل من الجذور للأوضاع السياسية، الاجتماعية، أو الفكرية القائمة، بدلاً من الإصلاح التدريجي أو البسيط.

الكلمة مشتقة من الأصل اللاتيني (**Radix**)، والتي تعني حرفياً "الجذر".

أبعاد ومعاني الراديكالية حسب السياق: في أصلها السياسي التاريخي: بدأت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا كحركة تطالب بإصلاحات ديمقراطية جذرية (مثل حق التصويت العام لجميع المواطنين، وفصل الدين عن الدولة)، وكانت آنذاك تُحسب على التيارات الليبرالية واليسارية التقدمية.

في العصر الحديث (المفهوم الشائع): بات المصطلح يُطلق على أي تيار (يمينياً كان أم يسارياً، دينياً أم علمانياً) يرفض الحلول الوسطى والحلول التنازلية، ويصر على تغيير النظام القائم من أساسه وبسرعة.

[2] السومرية والأكادية هما أقدم وأعظم حضارتين ولدتا في بلاد الرافدين (العراق القديم)، بالرغم من تداخلهما الجغرافي والتاريخي، إلا أنهما تمثلان شعوباً ولغات وثقافات مختلفة تماماً.

[3] الحضارتان البابلية والآشورية هما الامتداد المباشر والوريث الشرعي للحضارتين السومرية والأكادية في بلاد الرافدين (العراق القديم).

ومع وقوع بني إسرائيل في الأسر البابلي[4]، تسرّبت هذه الخرافات الوثنية إلى الثقافة اليهودية، وامتزجت بكتب التفسير المتأخرة والآثار غير المعتمدة (الأبوكريفا)[5].

وجاء التدوين المفصل والكامل للأسطورة في كتاب يهودي متأخر يُدعى "أبجدية بن سيرا" (المدون بين القرن الثامن والعاشر الميلادي)؛ حيث حاول أحبار اليهود فك تعارضٍ ظاهري زعموه في نصوص العهد القديم بين ما ورد في الإصحاح الأول من سفر التكوين (عن خلق الذكر والأنثى معاً) وما ورد في الإصحاح الثاني (عن خلق حواء من ضلع آدم).

ولسد هذا الفراغ النصي، اخترعوا قصة "المرأة الأولى لآدم"، اسنادا لما سمعوه من خرافات البابليين، فزعموا أن الله خلق "ليليث" من التراب في نفس اللحظة ونفس المادة التي خُلق منها آدم، فرفضت أن تنقاد له أو تعترف بمرتبة الرياسة له في الجنة، وقالت مقولتها الأسطورية:

"لماذا أنصاع لك وأنا مساوية لك في الأصل والنشأة؟".

ولما اشتد النزاع، نَطقت بالاسم العظيم الطاهر فهربت وطارت في الهواء حتى حطت بالبحر الأحمر (معقل الشياطين لديهم).

---

[4] الأسر البابلي (أو السبي البابلي) هو أحد أبرز الأحداث الفاصلة في التاريخ القديم، ويعني التهجير القسري الجماعي لبني إسرائيل (اليهود) من أرض فلسطين إلى عاصمة الإمبراطورية البابلية (في العراق حالياً) بعد تدمير مملكتهم ومدينتهم المقدسة أورشليم.

حدث هذا السبي في القرن السادس قبل الميلاد (بين عامي 597 و586 ق.م)، على يد الملك البابلي الشهير نبوخذ نصر الثاني (المعروف في التراث العربي باسم بُخْتَنَصَّر)

[5] الأبوكريفا (Apocrypha) هي كلمة يونانية تعني لغوياً "الأشياء المخفية" أو "الغامضة".

أما في الاصطلاح الديني والتاريخي، فهي تُطلق على مجموعة من الكتب والأسفار الدينية المسيحية واليهودية القديمة التي لم تُعتمد ضمن الكتب المقدسة الرسمية (القانونية)، ورفضت الكنائس أو المجامع اليهودية إدراجها في الكتاب المقدس، معتبرة إياها إما مجهولة المصدر، أو مدسوسة، أو تحمل أفكاراً لا تتوافق مع العقيدة الرسمية.

وتزعم الخرافة أن الله تعالى أرسل خلفها ثلاثة من الملائكة لإرجاعها، فرفضت العودة تماماً واختارت أن تُمسخ شيطانة مرعبة مجنحة بقوائم بومة، وأقسمت على الانتقام من نسل آدم باستهداف المواليد والنساء الحوامل.

ومن هنا ولدت أو شرارة للبطولة وهي الرضا بالمسخ على الرضا بالذل، وانفلقت من هذه البطولة نظرة رقة لليليث؛ بأنها البطلة المظلومة.

المحور الثاني: هندسة "المظلومية" وإعادة تدوير الشيطانة:

عبر قرون طويلة من تاريخ أوروبا والعصور الوسطى، ظلت "ليليث" رمزاً سوداوياً خالصاً؛ كائناً شيطانياً مرعباً يُستعاذ منه، ويُربط بالموت المفاجئ للأطفال أو الكوابيس الليلية.

إلا أنه مع صعود الفلسفات المادية الحداثية وحركات "أنسنة الشر"[6] والتمرد على الغيب، شهدت هذه الشخصية تحولاً دراماتيكياً في الغرب العلماني؛ إذ عُكف على "هندسة مظلومية" تاريخية لها، فقُلبت الحقائق ببراعة إيديولوجية[7]: وتحول فعلها التخريبي (التمرد، والهروب، والتحالف مع الشياطين) من خطيئة تخرج عن أمر الله تعالى والفطرة، إلى "ثمن باهظ وبطولي دفعته امرأة حرة رفعت صوتها للمطالبة بالمساواة الكاملة ورفضت الخضوع للنظام الأبوي (Patriarchy)".

---

[6] حركات "أنسنة الشر" (بمعناها الفكري والنقدي المباشر) هي التيارات الفلسفية، والأدبية، والسينمائية الحديثة التي تعمل على نزع صفة "الميتافيزيقية" (الغيبية أو الشيطانية المطلقة) عن الأفعال والشخصيات الشريرة، وإعادتها إلى أبعادها الإنسانية الأرضية الخاضعة للتحليل والتبرير.

ومعنى الأنسنة (Humanization) في اللغة والاصطلاح هو إضفاء الصفات البشرية، أو المبررات الإنسانية، أو الأبعاد الأرضية على شيء غير إنساني (سواء كان هذا الشيء كائناً غيبياً، جماداً، حيواناً، أو حتى مفهوماً مجرداً كالشر والخير، ليدخل فيه إبليس نفسه)

[7] الأيديولوجية: تعني: "المذهب الفكري" أو "العقيدة السياسية".

هنا وُلدت المظلومية؛ حيث صُوّر العقاب الإلهي بمسخها على أنه "فعل قمعي وسلطوي" مورس ضد أول أنثى طالبت بحق التعبير عن ذاتها ورفضت التبعية؛ وبذلك تم تفريغ الأسطورة من وجهها الشيطاني المرعب، وإعادة تدويرها كـ "ضحية أولى" في تاريخ الوجود.

المحور الثالث: التوظيف النسوي للأسطورة واتخاذها مطية للتمرد:

مع بزوغ الموجة النسوية الثانية في سبعينيات القرن العشرين، تلقفت الكاتبات والشاعرات النسويات الراديكالية (مثل جوديث بلاسكو وغيرهن) هذه الخرافة اليهودية الساقطة، وحولنها جهاراً إلى أيقونة التحرر الأنثوي الكبرى ومطية للتمرد العقدي؛ فأنشئت مجلات نسوية شهيرة تحمل اسم "ليليث" (مثل **Lilith Magazine** عام **1976**)، ونُظمت مهرجانات وحفلات موسيقية صاخبة تحت اسم (**Fair Lilith**) للاحتفاء بما يسمونه:

"القوة الأنثوية المتمردة الخارجة عن السيطرة".

وفي هذا الخطاب الهدام، عُدّت خطيئة ليليث تميزاً وفضيلة، وأُحيطت بهالة من الفخر والقداسة؛ في حين جرى تشويه صورة "حواء" (التي خلقها الله ليسكن إليها آدم) ووُصفت بأنها "المرأة الضعيفة الخانعة" التي قبلت بالعبودية والتبعية للرجل؛ فصارت "ليليث" في الذهنية النسوية هي الموديل الحقيقي للمرأة الحرة المستقلة ذات السيادة المطلقة

(**The Independent Woman**)

التي تنفصل عن كل قيد شرعي أو فطري.

المحور الرابع: المآل الإلحادي والطعن في العدالة والحكمة الإلهية:

إن خطورة هذا التوظيف لم تقف عند حدود النقد الاجتماعي لسطوة الرجال، بل تجاوزتها إلى المحاكمة العقدية المباشرة للذات الإلهية.

فالمرتكز الفكري للحركة النسوية يقوم على فلسفة الصراع الندّي التام، مستلهمين شعار ليليث المخترع: (أنا مثله، فِلمَ يَحكمني؟).

هذه "المركزية الأنثوية الصلبة" تلتقي مباشرة مع المنزع الإبليسي القائم على الأنفة والاستكبار ومقايسة النص بالرأي المجرَّد، وهي تقود أتباعها حتماً إلى الطعن في عدالة أحكام الله تعالى وحكمته؛ فبناءً على أسطورة ليليث، يزعم الفكر النسوي المعاصر أن البنية التشريعية في الأديان[8] بالتبع في ظنهم المعوج قامت أساساً على "إقصاء المرأة المستقلة وقمعها" وإجبارها على نمط حواء التابعة "الذليلة".

ومن هنا يسهل عليهم الطعن في الأحكام التشريعية الثابتة بالنصوص القطعية التي توزع الأدوار والمسؤوليات بين الجنسين بناءً على الخلقة والفطرة (كالقوامة، والميراث، والولاية، وأحكام الأسرة)؛ حيث يروّج الخطاب النسوي لتلك الأحكام بوصفها قيوداً ظالمة، ويصبح التمرد عليها فرض عينٍ لتحقيق الذات المفقودة، مقتفين في ذلك أثر الأسطورة ليليث بترك الجنة ونعيمها والهروب إلى وحل الشيطنة والانفلات، في سبيل الاستقلال.

المحور الخامس: الحق الإسلامي الناصع ومحاكمة الخرافة:

إن الوقوف أمام هذا الطوفان الإيديولوجي يوجب على فقهاء الأمة ومحدثيها العودة إلى الأصل الأصيل: تصفية العقائد والعلوم من شوائب المنقولات الفاسدة والإسرائيليات.

فالتصور الإسلامي لبدء الخلق، كما جاء في محكم التنزيل وصحيح الأثر، يقف شامخاً بنقائه وبراءته من هذه الخيالات النجسة:

أ – بطلان الأسطورة نقلاً وعقلاً: لا وجود في عقيدة المسلمين لكائن يسمى "ليليث"؛ فآدم عليه السلام هو أول البشر خُلقاً، ولم تكن له زوجة قبل حواء، والروايات التي تذكر غير ذلك

[8] قلت: في الأديان، أي: في الأديان سابقًا والإسلام خاصة لأنه لم يتغير كما غيروا أديناهم ليوافق فكر ليليث المزعومة.

هي إسرائيليات مكذوبة، وخرافات بابلية ساقطة بلا خطام ولا زمام، عطلت العقول في الجاهلية، وتُستغل لتعطيل الفطرة والعقيدة في العصر الحديث.

ب – حواء سَكَنٌ لا صِراع: خلق الله حواء من آدم ليكون بينهما مقتضى السكن والرحمة والمودة، كما قال سبحانه: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: 189].

فالأصل الفطري في الإسلام يقوم على التكامل والتراحم وتبادل الأدوار والمسؤوليات داخل بنية الأسرة والمجتمع، لا على الندية الصارخة والمناداة بالصراع السياسي والاقتصادي على السيادة والاستعلاء بين الجنسين.

ج – العدالة الربانية مقابل المساواة الصنمية: لقد وضع الإسلام ميزان "العدالة والحكمة الإلهية" كبديل للمساواة الشكلية الصنمية المادية؛ فالله سبحانه خَلق الذكر والأنثى متغايرين في الخِلقة والفطرة والتحمل، وشرع لكل جنس ما يوافق مسؤوليته الموكلة إليه، مع استوائهما التام في القيمة الإنسانية، والأهلية، وعموم الخطاب، والوعد بالثواب والعقاب والمصير: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: 97].

المحور السادس: وجوب نطق أهل العلم بالحق في حق النِّساء:

إنَّ سكوت أهل العلم عن هذا الطوفان الذي صارت مخلَّفاته السلبيَّة بيِّنة في المجتمع الإسلامي، هو سكوت عن الباطل، فلا ترى في يومنا من المشايخ إلَّا من يتكَّلم بمنطلق أتباع ليليث دون قصد، فخطابهم يدور على نفس النِّطاق: احترام الزوجة – النفقة على الزوجة – تكريم الأنثى – وووووو – وهذا كله صحيح لا غبار عليه، إذا ما هو الإشكال؟

الجواب: أنَّ المقام ليس مقام بيان فضائل الأنثى، بل المقام بيان المفاسد التي وقعت فيها، والبيان وقت الحاجة واجب، وتقديم غيره عليه في حال لزومه فقر علميٌّ لمن لا يعلم، واعتداء لمن يعلم.

فمن كلِّ الأحاديث النبويَّة في زجر النِّساء، وقفوا: عند بعض حديث ألا وهو: (إنَّ النِّساءَ شقائقُ الرِّجالِ) ولم يراعوا سبب الحديث، وأسباب الحديث، وهو باب علميٌّ كامل عند أهل الحديث بل والفقه، فأصل الحديث هو: سُئلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الرَّجلِ يجدُ البللَ ولا يذكرُ احتلامًا؟ قالَ: يغتسِلُ وعنِ الرَّجلِ يرَى أنَّهُ قد احتلمَ ولم يجِدْ بللًا قالَ لا غُسلَ عليهِ قالت أمُّ سلمةَ يا رسولَ اللَّهِ هل علَى المرأةِ ترَى ذلِكَ غُسلٌ قالَ نعَم إنَّ النِّساءَ شقائقُ الرِّجالِ[9].

وعلى هذا: فالمعنى: إنَّ النِّساءَ نظائِرُ وأمثالُ الرِّجالِ فِي الأحكامِ المُشتَرَكةِ بينهُما، وَهذا تعريضٌ مِنْهُ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّم بأنَّ المرأةَ مِثْلُ الرَّجُلِ فِي الاحتِلامِ ونُزولِ المَنِيّ، ولكنْ هذا مَقامٌ لم يُصرَّحْ فِيهِ بألفاظِه الصَّرِيحَةِ، وَهذا حياءٌ مِنْهُ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّم، وَلأنَّ المرأةَ فَهِمتِ المقصودَ من القَدْرِ الذي أجابَ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليها.

وليس معناه أنهم نظائر الرجال في كل شيء، بل فيما ذُكر من الحديث.

خاتمة المقالة:

إنَّ التمكين لشرع الله وحفظ حصون الأمة الفكرية لا يكون بمجرد رد الفروع الفقهية المستجدة، بل بـ تنقيح المصطلحات وتفكيك الرموز من جذورها.

وأسطورة "ليليث" تكشف بجلاء كيف يستبدل العقل الحديث المفتون بالغرب أصول الوحي والنصوص المسندة بقواعد مادية ورموز خرافية وُضعت للصد عن سبيل الله تعالى.

فالواجب على طالب العلم البصير والمحدث الناقد ألا يقبل من الأقوال والرموز إلا ما جاء من مشكاة النبوة ناصعاً مبرأً، راداً عوارض الفلسفات وأساطير أهل الكتاب إلى قاعِ جُبّها الإسنادي والتاريخي الذي خرجت منه.

---

[9] أخرجه الترمذي (113) واللفظ له، وأخرجه أبو داود (236)، وابن ماجه (612) باختلاف يسير.

وعليهم كشف الحق للنساء وأنَّ فتنتهنَّ أو تكليفهنَّ الغالب في الدنيا أنهنَّ أتباع، وهذا لا يعد شيئا أمام تكليف الرجل من الجهاد والصبر في الزحف وإعالة أهله وصيامه وقيامه وغير ذلك كثير...

ولقد جمعت: "الأربعون الزجرية في أحاديث زجر النساء" ونشرتها صفحة الألوكة المباركة، فأرجو من كل إخواني أن يقفوا وقفة واحدة لهذا الطوفان الذي هدّ كل كوكب الأرض على الحقيقة فما خلا منزل من ليليث حقيقة أو معنى، فإنَّ المؤمنة التقية النقية، مع إيمانها، إذا ذكرت لها تعدد الزوجات، تقلَّبت وذهب دينها وأبدت الاعتراض لا الغيرة المحمودة، وكل هذا ضرب من الطريقة الليلثية التي يطلب كهانها المساوات بين الفريقين...

هذا وبالله التوفيق، وصلِّ اللَّهم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وسلِّم

والحمد لله ربِّ لعالمين.